مجلة أبوليوس
المجلد 09 العدد 02 – جويلية 2022
الصفحات: 212- 222

حَدُّ الأسلوب وحُدُودُه في الفَهْمِ النّقديّ لدى عبد الملك مرتاض

The Concept of Style and its Limitations in Critical Understanding of Abdelmalek Mortad

د. عبد الله مخطاري*
جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف (الجزائر)
ah.mokhtari@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام: 2022/06/17 تاريخ القبول: 2022/07/20 تاريخ النشر: 2022/07/31

ملخص البحث:

نسعى من خلال هذا البحث إلى استقصاء آراء النّاقد الجزائريّ عبد الملك مرتاض التي بثّها في بعض كتاباته حول الأسلوب والأسلوبيّة من أجل عرضها ومدارستها بتوضيحها وشرحها، لذا سنحاول الإجابة عن الإشكاليّات التّالية في ضوء رؤية عبد الملك مرتاض: ما مفهوم الأسلوب؟ وهل لكلّ كتابة أسلوب؟ وما أساس الأسلوب وعماده؟ وما هي شروط تحقيق التّفرّد والتّميّز في طريقة الكتابة؟ وما سبل التّفرّد؟ وما هو السّبيل إلى اكتساب أسلوب؟ وما مدى اقتدار المنهج الأسلوبيّ على مُكَاشَفَة كلّ الخصائص الجماليّة للنّصوص الأدبيّة؟.

الكلمات المفتاحية: عبد الملك مرتاض، الأسلوب، الأسلوبيّة، الفردانيّة، المنهج.

Abstract:

Through this research, we seek to investigate the views of the Algerian critic Abdelmalek Mortad, broadcast in some of his writings about style and stylistics. In order dismantle their fundamentals through elucidation and explanation; we endeavour to grapple to the following issues from Abdelmalek Mortad's lens: what is the concept of style? Does every writing have a style? What is the basis of the style and its principles? What are the conditions for achieving peculiarities and distinctiveness in the writing style? What are the ways to distinctiveness? What is the means to acquire a style? What is the stylistic method to discover aesthetic properties of literary texts?

Keywords: Abdelmalek Mortad, style, stylistics, uniqueness, approach

* المؤلف المراسل

1- مقدّمة:

لا يخفى على كلّ مطّلع أنّ كتابات عبد الملك مرتاض في الزمن المعاصر من أكثر الكتابات النّقديّة ثراءً وجِدِّيَّةً، وأشدّها إيغالًا وعمقًا ودقّةً، وأوسعها مصدرًا، وأكبرها جرأةً، وأثراها استدراكًا وإبداعًا، وأجزلها لفظًا، وألطفها معنى، وأحسنها أسلوبًا، وأغناها تطبيقًا، وأقدرها مزاوجةً بين التّراث العربيّ والحداثة الغربيّة، وأوضحها غايةً، بعيدًا عن التّجريد المؤدّي إلى الغموض والتّعمية، وصاحبُها ليس إِمَّعَةً، ولا مخالِفٌ من أجل المخالفة، وإنّما هو عالِمٌ متعلِّمٌ معلِّمٌ، في النّقد مجدِّدٌ مطوِّرٌ، ومستنِدٌ إلى أدلّة وإثباتات، وبراهين وتعليلات، موضوعيٌّ، بعيدٌ عن العنصريّة المفرّقة بين العرب والعجم في الأمور العلميّة، غير متعصّب لسلف، ولا ميّالٍ لخلف.

ولعلّ لبعض ذلك أصبحت اجتهاداتُ عبد الملك مرتاض مؤخَّرًا مادّة علميّة دَسِمَةً تُسِيلُ حِبْرَ أقلام العديد من الباحثين أو قُلْ تُسِيلُ لُعَابَهُم، خاصّة المهتمّين منهم بالنّقد الجزائريّ، وبحثُنا هذا لا يخرُج عن إطار تلك البحوث، فهو يصبُّ في موضوع نقد النقد من خلال النظر في موضوع من بين الموضوعات المعرفيّة الكثيرة التي تطرّق إليها عبد الملك مرتاض، وهو موضوع الأسلوب والأسلوبيّة، فعبد الملك مرتاض سعى جاهداً من أجل ضبط وشرح القضايا الكلّيّة والجزئيّة المتعلّقة بهذا الموضوع، ليأتي دورنا هنا في تبسيط الأفكار التي جاء بها، والنظر في ما اشتملت عليه من أوجه الصّواب، حتّى نقرّبها من الألباب، ونعين على فهم مثل هذه الدّراسات والآداب.

2- مفهوم الأسلوب:

أخذ الأسلوب والأسلوبيّة حيزًا كبيرًا في كتابات عبد الملك مرتاض باعتبارهما من صميم النّقد الأدبيّ رغم قيامهما على أسس لغويّة لسانيّاتيّة، وفي مشكل الانتماء هذا يقول عبد الملك مرتاض عن الأسلوب إنّه: "مفهوم لسانياتيّ نقديّ جماليّ معقّد مركّب، وهو في تصوّرنا يجب أن يعتزي إلى علم الجمال أو إلى النّقد الجماليّ أكثر ممّا ينبغي أن ينتمي إلى اللّسانيّات"[1]، وهو ينتمي إلى النقد ليس كإجراء أو أداة أو مفهوم جزئيّ سطحيّ، بل كموضوع للأسلوبيّة أو علم الأسلوب الذي صار علمًا قائمًا بذاته بعد أن مرّ بمراحل تطوَّرَ خلالها تاريخيًّا، فصارت الأسلوبيّة أسلوبيّات "تراكميّة لا تبادليّة؛ أي أنّ اللّاحق منها لا يلغي السّابق تمامًا... بل يثريه ويتّكئ عليه وإن اضطرّ لتغيير نقطة الارتكاز فيه، فأدوات البحث في هذه العلوم الإنسانيّة لا تتناسخ بل تتكاثر، ويصحّح الحديث منها اتّجاه حركة القديم، دون أن يوقفها أو يردّها على أعقابها، فالجديد فيها ينقد القديم ولا ينقضه؛ لأنّه دخل في صميم تجربته وكينونته"[2]، لذا تبلورت الأسلوبيّة وتشكّلت معالمها وتبيّنت إجراءاتها وأهدافها، "ومن الأكيد أنّ الأسلوبيّة تسعى إلى الاستقلال بذاتيّتها من حيث مرماها الخاصّ، وكعلم يستعين بأدوات الإجراء اللّسانيّ فهي تتّسم جوهريّا بالبحث اللّسانيّ والأدبيّ، يظهر في شكل ترسيخ عميق فعليّ"[3]، من خلال وضع تلك الأدوات في سياق مختلف عن سياقها اللّسانيّ الأصليّ من حيث الغايةُ المرجوّة من تطبيقها، وحدودُ التّطبيق ومنهجُه، وصبغةُ الأدبيّة التي تُصطَبَغ بها، مع جعلها متمكّنة وثابتة ووظيفيّة ضمن الدّراسة الأسلوبيّة، وفعلا "استطاعت [الأسلوبيّة] أن تتأسّس بذاتها

وتستقلّ بنفسها كالشّجرة المثمرة المهجنة عن سوائها"[4]، مهجنة عن سوائها لأنّها أخذت أدواتها من علوم اللّغة عربيّها وغربيّها، ومثمرة لأنّها توصّلت إلى نتائج واضحة عند اعتمادها كمنهج في دراسة النصوص الأدبيّة.

إنّ الحديث عن مفهوم واضح بيّن للأسلوب هو من الصّعوبة بمكان، و"مهما بلغ [مفهوم] الأسلوب من الرّهافة يبقى فيه دومًا شيء من الفجاجة"[5]، ولذلك "ليس هناك تعريف واحد للأسلوب يتمتّع بالقدرة الكاملة على الإقناع، ولا نظريّة يُجمِع عليها الدّارسون في تناوله، وقد أدّى هذا إلى أن يقدّم كثير من الباحثين في مقدّمة كتبهم لعلم الأسلوب بعرض مجموعة من التعاريف تصل في بعض الأحيان إلى نيّف وثلاثين تعريفا"[6]، وقد اعترف عبد الملك مرتاض بتلك الصّعوبة في القول الذي أوردناه له في الفقرة السّابقة، حيث عدّ مفهوم الأسلوب معقّدا ومركّبا، لذلك نجده يورد عدّة مفاهيم للأسلوب، ويقول فيه كلامًا كثيرًا، فلم يحدّد مفهومًا واضحًا للأسلوب لاستحالة ذلك باعترافه المباشر؛ حيث أَقَرَّ بأنّ الأسلوب "سيظلّ غامضًا، مُشْكَلاً في تصوّر الوعي الجماعيّ"[7]، ولعلّ هذا الغموض الذي يكتنفه نابع من طبيعة الأسلوب؛ إذ إنّه فنّ وليس بعلم، والفنّ من طبيعته أنّه شاسع ومترامي الأطراف، فلا حدود تحدّه، ولا قاعدة تضبطه، ولهذا يعرّف عبد الملك مرتاض الأسلوب على أنّه "مظهر من مظاهر الفنّ، هو طريقة وضع اللّغة في حال من الوظيفيّة غامرة بالعنفوان والحيويّة والنّشاط والعطاء"[8]، إنّه مفهومٌ فضفاضٌ غيرُ دقيق، مُشاكِلٌ لِمَا جاء عند رولان بارت حين قال عن الأسلوب: "إنّه نِتَاج عنفوان"[9]، فكلّ ما حدّده مرتاض هنا هو طبيعة الأسلوب مع أثر انعكاسه على اللّغة، ولم يبيّن كيف تكون تلك الطريقة التي ذكرها، وماهي معاييرها، وما شروطها إن كان لها شروط حتى تؤدّي وظيفة جعل اللّغة في تلك الحال التي ذكرها، وحتى الأثر الذي ذكره أثر فضفاض كذلك غير معيّن؛ إذ يبدو من كلام مرتاض وكأنّه يريد أن يقول بأنّ الأسلوب يمنح الحياة للّغة، وأنّ اللّغة بدون أسلوب هي لغة ميتة لا حياة فيها!.

يؤكّد عبد الملك مرتاض منظورَه للأسلوب في غير موضع من كتاباته عند حديثه عن علاقة الأسلوب باللّغة، من ذلك قوله: "إنّ الأسلوب يتوّج عمل اللّغة المتفرّدة، يؤنّقها، يؤلّقها، يدبّجها، يزيّنها فيزدان بها، يعرضها في معارض ناضرة فيَتَرَهْيَأُ فيها، فكأنّ اللّغة ثوب خام، والأسلوب هو الطريقة التي تتمّ بها خياطة هذا الثوب"[10]، يستعين عبد الملك في محاولاته لمكاشفة الأسلوب بالفنّيّات البلاغيّة كالاستعارة والتّشبيه، والتي تساعده على تجسيد الأسلوب في شكل محسوس من أجل أن يوصل تصوّره للأسلوب إلى القارئ، وهو ما يتبدّى من خلال تشبيهِه اللّغةَ بالثوب، والأسلوبَ بطريقة الخياطة، ونسبتِه إلى الأسلوب كلّ تلك الأفعال التي هي في الأصل تصدر عن إنسان أو عن لواحق للزّينة.

يتمحور حديث عبد الملك مرتاض الأخير الذي سقناه في الفقرة السّابقة حول فكرة أساسيّة، هي اعتبار اللّغة مادّة خام، والأسلوب صورة تتشكّل عليها هذه المادّة، وربّما هذا التصوّر يذكّرنا بنظرة العرب للشّعر، حين اعتبروه صناعة واعتبروا المعاني مادّته الخام، ومن هؤلاء قدامة بن جعفر (ت337هـ) الذي قال: "المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة، والشعر فيها كالصّورة، كما يوجد في كلّ صناعة، من أنّه لا بدّ فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصّور منها، مثل الخشب للنّجارة، والفضّة للصّياغة"[11]،

فقد اعتبر قدامة الشّكل أو الصّورة بمثابة الهيئة التي تتشكّل عليها المادّة الخام لهذه الصناعة -أي الشِّعر- والمقصود بالمادة الخام المعاني، بينما الألفاظ والتراكيب هي القوالب التي تحدّد معالم هذه الهيئة، وبالتالي يمكن أن يكون عبد الملك قد استلهم تصوّره من هذه القضيّة في التّراث العربيّ.

تُلتَمَسُ الفكرةُ نفسُها وتُؤكَّد في قول عبد الملك مرتاض: "اللّغة مادّة والأسلوب إبداع، واللّغة أداة والأسلوب شكل... اللّغة جواهر منثورة منشورة، والأسلوب عقد منتظم منها"[12]، وقوله: "الأسلوب هو المظهر الجماليّ الذي يمتدّ إلى اللّغة في إفرادها، والكتابة في تركيبها، ليتولّاهما بالزّينة والتّنميق، والتّفريد والتّخصيص"[13]، تبرز هنا بوضوح ثنائيّة اللّغة والأسلوب بروز ثنائيّة اللّفظ والمعنى في التّراث العربيّ، ومعلومٌ الزَّخَم الذي أخذته هذه الثنائيّة الأخيرة إلى درجة أنّه يمكن ضرب المثل بها في كثرة التّناول والمُدَارَسَة، ويلاحَظ بعض التناصّ بين قول مرتاض الأخير، وقول ميكائيل ريفاتير Michael Reffaterre بشأن هذه الثّنائيّة: "le langage exprime et que le style met en valeure"[14]، إلّا أنّ ثنائيّة اللّغة والأسلوب تأخذ في فكر عبد الملك مرتاض أبعادًا تفكيكيّة تفسيريّة ابتغاء الوصول إلى الماهيّة، فاللّغة مادّة وأداة وجواهر مفردة منثورة، "أمّا حدّها فإنّها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم"[15]، فنوع المادّة أصوات مفردة محدودة العدد، ووظيفة الأداة التّأليف غير المحدود، فهي منثورة الأحرف والكلمات ولكنّها قابلة للجمع والتّأليف، وقيمتها قيمة الجواهر لأنّ ثمن الشّيء يُقاس بمدى أهمّيّته، ولا تخفى على أحد أهمّيّة وضرورة اللّغة، والأسلوب إبداع وشكل وعِقد منتظم من الجواهر ومظهر جماليّ للّغة، الإبداع دلالة اللّانهاية والإيجاد من عدم وحتّى من غير عدم، وهو مرتبط بالأشياء الجميلة أكثر من ارتباطه بعكس ذلك وإن كان يُطلَق على الابتكار فيهما معًا، والشّكل يحيل على صياغة العمل وبنائه اللّفظيّ وهيئته النّاتجة عن عمليّتي الاستبدال والتّركيب، وهو دلالة البروز وأخذ حيز ضمن الوجود، والعِقد المنتظم من الجواهر دلالة التّناسق وفق نظام معيّن، وانسجام كلّ عنصر مع بقيّة العناصر، بحيث لا يتعارض معها، ولا تقوم بعض العناصر عقبة في سبيل تحقيق مظهر جماليّ للّغة.

لعلّ هذه الفكرة تحيلنا إلى قضيّة كتب عنها عالِم اللّغة الجليل عبد القاهر الجرجانيّ (ت471هـ)، وهي قضيّة النظم التي من بين ما قال فيها وهو يتحدّث عن نظم الكَلِم: "تقتفي في نظمها آثار المعاني، وتُرتّبها على حسب ترتّب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يُعتَبَر فيه حال المنظُوم بعضه مع بعض، وليس هو النّظم الذي معناه ضمّ الشّيء إلى الشّيء كيف جاء واتّفق، ولذلك كان عندهم نظيرا للنّسج والتّأليف والصّياغة والبناء والوَشْي والتحبير وما أشبه ذلك... والفائدة من معرفة ذلك، أنّك إذا عرفتهُ عرفتَ أن ليس الغرضُ بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل... [و]لا نظم في الكَلِم ولا ترتيبَ حتى يُعلَّق بعضها ببعض، ويُبنى بعضها على بعض، وتُجعَل هذه بسبب من تلك"[16]، فالتّأليف هو تعليق للكَلِم إذن كما تُعَلَّق الجواهر في العِقد، وكثيرا ما استُعمِل هذا التّشبيه في وصف الكتابة، من ذلك قول ابن المعتزّ وهو يمدح كاتبًا:

إِذَا أَخَذَ القِرْطَاسَ خِلْتَ يَمِينَهُ

تُفَتِّحُ نَوْرًا أَوْ تُنَظِّمُ جَوْهَرا[17]

[الطّويل]

وقول الآخر:

يُؤَلِّفُ اللُّؤْلُؤَ المَنْثُورَ مَنْطِقُهُ

وَيَنْظِمُ الدُّرَّ بِالأَقْلَامِ فِي الكُتُبِ[18]

[البسيط]

وما يجعل تعليق الكَلِم تعليقاً منتظماً غير اعتباطيّ ولا عشوائيّ هو التزام أمرين فيه، أوّلهما توخّي معاني الإعراب؛ أي احترام قواعد النّحو، وثانيهما توخّي ترتيب المعاني التي تُقذَف في نفس المؤلِّف قبل التعبير عنها وترجمتها بطريقة منطقيّة إلى تلك الرّموز الخطّيّة أو الصّوتيّة المتوافق عليها؛ أي الألفاظ، والفائدة من كلّ هذا تحقيق الاتّساق والانسجام بين عناصر التّأليف، وبعد أن ربطنا بين هذا وذاك، يمكن القول بأنّ عبد الملك مرتاض وهو يتحدّث عن الأسلوب كان يقصد حسن النّظم، ولكن يمكن طرح سؤال هنا وهو: هل كان عبد القاهر الجرجانيّ يقصد الأسلوب وهو يتحدّث عن النّظم؟ الجواب، لا، على الأقل من منظور عبد الملك مرتاض؛ وللتّعليل ينبغي الإجابة على السّؤال التّالي.

3- هل لكلّ كتابة أسلوب؟

يبدو في تصوّر عبد الملك مرتاض أنّ الأسلوب هو مستوى معيّن من الكتابة، ولا يكون للكتابة ككلّ، إذ يقرّر بأنّه: "لا ينبغي أن نطلق الأسلوبَ إلّا وهناك المقدار الأدنى من الجمال الفنّي لنظام الكلام، للخطاب"[19]، إذن، لا بدّ ممّا ليس منه بدّ، وهو المسحة الفنّيّة ولو كانت مسحة بسيطة، وبهذا "اغتدى الأسلوب مقرونا بالفنّ والأدب الرّفيعين"[20]، إذ يُخرِج عبد الملك عن الأسلوب الكتابةَ المبتدئة الرّديئة التي يفتقر صاحبها للخبرة، أو للتحكّم في اللّغة على الأقل، أو بالأحرى التحكّم في طاقات اللّغة وإمكاناتها في الدّلالة والتّركيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتّضاد، والمقابلة والتّجانس وغيرها من وسائل التعبير الفنّي، ويكون كمن قيل فيه:

وَكَاتِبٍ كُتْبُهُ تُذَكِّرُنِي الـ

قُرْآنَ حَتَّى أَظَلَّ فِي عَجَبِ

فَاللَّفْظُ "قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ"

وَالخطُّ "تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبِ"[21]

[المنسرح]

ويؤكّد عبد الملك مرتاض ذلك مرّة أخرى بقوله: "إنّ الكتابة السّاذجة أو المبتدئة، هي وحدها التي لا أسلوب لها، أمّا الكتابة بالمفهوم الأدبيّ الاحترافيّ، وحتّى بالمفهوم العبثيّ لهذه الكتابة، فإنّه لا مناص من أن يكون لها أسلوب، طريقة ما"[22]، فعبد الملك مرتاض ينفي عن الكتابة العاديّة أسلوبيّتها، وبالتّالي فهو يفرّق بين اللّغة العاديّة واللّغة الأدبيّة، ويرى أنّ هذه الأخيرة علاقتها بالأسلوب "دقيقة جدّا، لطيفة الصّلة إلى حدّ بعيد، بحيث يعسر التّمييز على الأقل تقليديّا، بين الأسلوب ولغته المنسوج منها"[23]، وتعود هذه الصّعوبة ربّما إلى رقيّ المادّة المستعملة في الكتابة، بمعنى أنّ الألفاظ المنتقاة تكون شريفة شرف المعاني المسوقة في الكتابة، ونسجها يكون فنّيًّا خالصًا، وإذا كان الحال كذلك فلا يمكن الفصل بين الأداة والشّكل وبين المادّة والإبداع إلّا باستعمال مناهج تحليل ونقد حديثة، أمّا الطرق التقليديّة فتقف عاجزة إلى حدّ ما على فعل ذلك، وممّا تقدّم تتبيّن علّة الإجابة على السؤال الذي طُرح في الفقرة

السابقة، فعبد القاهر الجرجاني وهو يتحدّث عن النّظم كان يقصد الكتابة على العموم، رديئها وجيّدها، بينما نفى عبد الملك مرتاض الأسلبة عن الكتابة الرّديئة وأثبتها لجيّدها، فكلّ أسلوب هو نظم، وليس كلّ نظم أسلوبا.

4- أساس الأسلوب وعِماده:

إنّنا لو أتينا بمعظم كلام عبد الملك مرتاض عن الأسلوب أو عن ماهية الأسلوب إن لم نقل كلّه، ونظرنا فيه، لوجدنا قاسما مشتركا بين ذلك كلّه، وعنصرا أساسيّا لا يَذكرُ الأسلوبَ إلّا ويذكره معه، إنّه "التفرّد"، أو ما يُطلَق عليه "الفردانيّة"؛ أي أن يكون الأسلوب في شكله فردًا لا مثيل له، يوضّح عبد الملك مرتاض ذلك فيقول: "الأسلوب لا يجوز له أن يكون أسلوبًا إلّا إذا كان متفرّدًا بذاته، مطبوعا بطابع كاتبه، فالتفرّد شرط مركزيّ لقيام مفهوم الأسلوب"[24]، وهو ما يتبدّى في مَفْهَمَة الأسلوب لدى بوفون Buffon التي اشتهرت وتأثّر بها كثيرون، فاتّصلت بها تعريفات عديدة، ونصّها: "le style est l'homme même, le style ne peut donc ni s'enlever, ni se transporter, ni s'altéré"[25]، فالأسلوب هو الإنسان نفسه، لا يمكن أن يزول أو يُسرَق أو يُنقَلَ أو يُغيَّر، ويتعذّر انتزاعه أو تحويله أو سلخه[26]، إذن ليكون هناك أسلوب ينبغي توفّر شرطين، أوّلهما الابتعاد عن الكتابة السّاذجة الرديئة، وثانيهما التميّز في طريقة الكتابة، هذا التميّز الذي يجعل الأسلوب كالبصمة التي تختلف بين البشر من شخص إلى آخر حيّهم وميّتهم، وإذا كان الأمر كذلك فلا مبالغة إن قلنا بأنّ الأسلوب هو آية من آيات الله، فمن آيات الله اختلاف ألسنة البشر وألوانهم [27]، وكذا اختلاف أساليبِ أدباءهم ومبدعيهم.

5- شروط تحقيق التفرّد والتميّز في طريقة الكتابة:

لا ريب أنّ تحقيق التفرّد والتميّز في طريقة الكتابة يتطلّب توفّر صفات في الأديب، وهو أن يكون قارئًا مطّلعًا، متمكّنا من اللّغة التي يكتب بها؛ يملك معجمًا لفظيًّا ثريًّا، وزادًا بلاغيًّا فنّيًّا متنوّعًا، إضافة إلى امتلاكه قاعدة نحويّة واسعة سليمة، ويتمتّع بخيال خصب، وبجرأة أدبيّة، ويؤمن بحرّيّة الفكر، وله قدرة على توظيف كلّ ذلك أنّى شاء وحيثما شاء "لِمَا يحتاج إليه من التّصرّف في المعاني المتداولة والعبارة عنها بألفاظ غير الألفاظ التي عبّر بها من سبق إلى استعمالها مع حفظ صورتها وتأديتها إلى حقائقها... مع ما يحتاجه من اختراع المعاني الأبكار للأمور الحادثة التي لم يقع مثلها، ولا سبق سابق إلى كتابتها؛ لأنّ الحوادث والوقائع لا تتناهى ولا تقف عند حدّ"[28]، هكذا يستطيع الأديب أن يتفرّد ويكون له أسلوب، "فالأسلوب في حقيقته، هو طابع التفرّد في إنجاز الخطاب... ولا يكون أسلوبٌ، طريقةٌ للكتابة متفرّدة، طابعٌ شخصيّ تنطبع به كتابة الكاتب، حتى يكون قادرًا على التحكّم العالي في لغته، متمكّنا من النّسج البارع بها، واللّعب بألفاظها"[29]، أمّا جودة الأسلوب فتختلف وتتفاوت من كاتب لآخر بتفاوت درجاتهم في تلك الصّفات، غير أنّ التفرّد ليس تفرّدًا مطلقًا مهما كانت عبقريّة الأديب، بل هو تفرّد نسبيّ محدود إلى حدّ ما، "فلا كاتب يستطيع ابتكار أسلوب من عدم، من أجل ذلك تظلّ خصوصيّته أو فردانيّته نسبيّة ما دامت تذوب لدى إجرائها في تاريخ الأدب، ضمن العبقريّة العامّة لذلك الأدب"[30]، ذلك لأنّ الكاتب وهو يكتب فإنّ كتابته تكون حصيلة كتابات اطّلع عليها من قبل، أضافت إلى ملكته اللّغويّة والإبداعيّة، وانعكست على كتابته إمّا تقليدًا أو تأثّرًا، والتّقليد يكون عن وعي، أمّا التأثّر فيكون عن غير

وعي، ولا يطغى التّقليد أو التأثّر على إنتاج الأديب بل تكون له مساحة من الحرّيّة توفّرها له الصّفات التي سبقت، يستطيع من خلالها الإبداع والابتكار، وهنا تكمن وتبرز فردانيّته.

6- سُبُلُ التفرّد:

إنّ للتفرّد مظاهر عدّة لا يمكن إحصاؤها، فهي غير منتهية، وممتدّة امتداد العقل البشريّ، وله سُبُلٌ عدّة، من ذلك الإغراب؛ أي الإتيان بالغريب غير المأنوس من القول، والذي لا يُعرَف عند القرّاء أو المتلقّين، "... لأنّ الشّيء من غير معدنه أغرب، وكلّما كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكلّما كان أبعد في الوهم كان أطرف، وكلّما كان أطرف كان أعجب، وكلّما كان أعجب كان أبدع"[31]، فالتقدّم في درجة الإبداع والغَوْرُ فيه مقترن بدرجة التّعجيب والإطراف، والإبداع يُفضي إلى التفرّد الذي من سُبُلِهِ كذلك كسر السّياق، والسّياق الأسلوبيّ عرّفه Michael Riffaterre كما يلي: " le contexte stylistique est un pattern linguistique rompu par un élément qui est imprévisible et le contraste résultant de cette interférence est le stimilus stylistique"[32]، ومعنى ذلك بالعربي كما ترجمه حميد لحمداني أنّ السّياق الأسلوبيّ "هو نموذج لسانيّ مقطوع بواسطة عنصر غير متوقّع، والتّناقض النّاتج عن هذا التّداخل هو المنبّه الأسلوبيّ"[33]، والمقصود بذلك كسر الاستعمال المألوف للّغة، والإتيان بفكرة معهودة لدى المتلقّي ثمّ الانقلاب عليها من خلال إنهائها بطريقة مُبْتَكَرة ومخالفة لبدايتها المعروفة أو المبتذَلَة، ومن مظاهر التفرّد كذلك استعمال "عدد من الطّرق للتّعبير عن الفكرة نفسها، وهذا ما نسمّيه بالمتغيّرات الأسلوبيّة التي تشكّل كلّ واحدة منها طريقة خاصّة للتّعبير عن المفهوم ذاته"[34]، وتحقيق هذا مرتبط بمدى بلاغة وبداهة الكاتب، كما يمكن أن يكون المعجم اللّغويّ للأديب سبيلًا إلى التفرّد إذا ما كان ثريّا بألفاظ أو صيغ أو تراكيب غير موظَّفة عند الغير أو قليلة ونادرة التّوظيف، والمظاهر النّاتجة عن مثل هذه السّبل إذا ما توافرت في الإنتاج الأدبيّ فإنّها تحقّق قِيَمًا أسلوبيّة تكون هي الواجهة التي يَبرُز من خلالها الأسلوب وتتبيّن معالمه.

7- السّبيل إلى اكتساب أسلوب:

تقول القاعدة: لتكون كاتبًا بارعًا ينبغي أن تكون قارئًا جيّدًا، ولتكون متحدّثًا بارعًا ينبغي أن تكون مستمعًا جيّدًا، فاكتساب مَلَكَتَي الكتابة والتحدّث مرتبط باكتساب مَلَكَتي القراءة والاستماع، فالأسلوب ليس صفةً تُولَد مع صاحبه، ولا يمكن ابتكاره من عدم، بل هو مَزِيَّةٌ مُكتَسَبة كغيره من المهارات أو الصّناعات التي توجد لدى الإنسان قابليّة اكتسابها، وهذه النظرة للأسلوب هي ما بدا لعبد الملك مرتاض، حيث يقول: "إنّ الأسلوب في تمثّلنا، وبعد طول التّفكير والتّأمّل في أمره، بدا لنا أنّه ليس من قبيل التعلّم والتمرّس، وإنّما هو من قبيل التمثّل والتشبّع والمحاكاة، في مرحلة أولى، والتّفنّن والتفرّد في المرحلة النّاضجة من حياة الكاتب"[35]، ذكر "بعد طول التّفكير والتأمّل" وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على عسر الوصول إلى كُنْهِ الأسلوب، وهو ما يؤدّي إلى عسر معالجة القضايا المتعلّقة به، ثمّ قرّر أنّ الأسلوب لا يُكتَسَب بالتعلّم والتدرّب، وهذا يعني أنّه لو أُوتِيَ بشخص وتمّ تعليمه النّحو والبلاغة والمعجميّة وبقيّة العلوم اللّغويّة أو اللّسانيّاتيّة، ثمّ تُرِك ليتدرّب على غير مثال سابق وليبتكر لنفسه أسلوبا في الكتابة لما استطاع تحقيق ذلك؛ لأنّ "اللّسانيّات كأنّ مدى نشاطها نهاية الجملة، بينما

الأسلوب، ذلك الطّابع المتفرّد المتّسم وجوبا بالجمال الذي يطبع اللّغة في انتساجها ليس لدى حدود الجملة فحسب، ولكن عبر الخطاب الأدبيّ كلّه"[36]، وليس على مستوى الشّكل أو المضمون؛ بل كلاهما، لأنّ النّصّ عند الأسلبة "كيان لغويّ واحد بدوالّه ومدلولاته، ولا مجال للفصل بينهما... من حيث إنّ أوّلها مفض إلى الآخر"[37]، لذلك فهذا الشّخص يحتاج إلى القراءة الكثيرة لكتابات غيره من أجل احتذائها والصّياغة على منوالها فنيًّا وموضوعاتيًّا في البداية، "ولولا أنّ من لا يحسن الكتابة يجد ممّن يحسنها معونة وإبانة عنه لما استقام له أمر ولا تمّ له عزم، ولحلّ محلّ الصّور الممثلة، والبهائم المهملة"[38] -والمعونة هنا منسوبة للمؤلِّف ويُراد بها المؤلَّف- ومع ذلك لا يكتسب أسلوبا لأنّه يفتقر إلى خاصّيّة التفرّد الأساسيّة، بل هو يكوّن لنفسه أرضيّة مهيّأة وصالحة للإبداع والابتكار، وحين وقوع هذين الأخيرين وتحقّقهما يكون قد وصل إلى التفرّد، أو على الأقل يستطيع الوصول إليه بطريقة لا إراديّة من خلال انصهار الأساليب التي كان قد قرأها بعضها مع بعض، ليتشكّل لديه أسلوب يمكن وصفه بالهجين يكون حصيلة لكلّ ذلك، وتفرّده يكمن في الجمع بين أساليب عدّة وإعادة تشكيلها بطريقة تمنع من أن يكون الأسلوب الحاصل صورةً لأسلوب معيّن.

يُضاف إلى العناصر التي سَبَقَت من أجل اكتساب أسلوبٍ عنصرٌ آخر مهمٌّ، إنّه الموهِبة، وهو عنصر لا يُتَعَلّم ولا يُكتَسب، بل هو استعداد فِطريّ لدى المَرْءِ للبراعة في فنٍّ أو نحوِه، وهو بمثابة الأرضيّة الأولى التي يُمكن البناء عليها، يذكر عبد الملك مرتاض ذلك فيقول مرّة: "الأسلوب وليد الموهبة"[39]، ويقول مرّة أخرى: "أمّا الأسلوب فشأنه التمثّل والتشبّع والتثاقف والتّحاكي، والتّناص أو التّكاتب، وشيء آخر، حتما، من الموهبة في تنميقه يُضاف"[40]، هنا يبرز تناقض في الرّأي، فقد جعل الموهبة في قوله الأوّل أمرًا أساسيًّا لقيام الأسلوب، إذ جعلها المصدر الأوّل له، فالأسلوب وليدها على حدّ تعبيره، بينما جعلها في قوله الثّاني أمرًا مكمِّلًا، وكأنّه أراد أن يقول بأنّ الأسلوب يُطلَق ويقوم بتلك الأمور التي ذكرها من التمثّل إلى التّكاتب بينما ينحصر دور الموهبة في تزيين ذلك الأسلوب وزخرفته وتحسينه، ولكن يمكن أن نجد تخريجا لتبرئة هذا الرّأي من التّناقض، فنقول بأنّ الأسلوب فعلا هو وليد الموهبة لأنّ الأسلوب في حدّ ذاته وفي إحدى مفاهيمه هو تأنيق اللّغة وتأليقها وتدبيجها وتزيينها وعرضها في مناظر ناضرة، كما سبق، وإنّما التّناقض الذي حصل ينحصر في القول الثاني؛ عندما قال "تنميقه"؛ فالضمير يدلّ على أنّ هناك أسلوبا قد كان ثمّ جرى تنميقه كإضافة له، بينما الأسلوب في منظور عبد الملك مرتاض الذي تقدّم لا يقوم ولا يُطلقُ إلّا بوجود هذا التّنميق.

8- مدى اقتدار المنهج الأسلوبيّ على مُكَاشَفَة كلّ الخصائص الجماليّة للنّصوص الأدبيّة:

يقرّر عبد الملك مرتاض أنّ ما تنتهي إليه الأسلوبيّات عند دراستها للنّصوص "سيظلّ سطحيًّا محدود الغَناء بالقياس إلى الكشف عن خصائص النصّ الجماليّة، وإنّها، نتيجة لذلك، لا تستطيع أن تتولَّجَ في صميم النّسج الأسلوبيّ... وذلك بحكم ما في علمانيّتها من تجريد، ثمّ بحكم وظيفتها اللّغويّة المحدَّدَة لها فيما رُسِم من العلّة التي من أجلها كانت"[41]؛ أي أنّ السّبب في محدوديّة قدرة الأسلوبيّة على مُكاشفة جماليّات النّصّ هو الطّابَع العالميّ الذي يكتسيه جانبها النّظريّ، وهذا ما يجعل كثيرا ممّا جاء فيه مستحيل أو صعب التّحقيق من لغة

لأخرى، لاختلاف الأسس التي بُنِيَ عليها، والتي استُنبِطَت واستُنتِجت من لغات مختلفة الخصائص، ثمّ إنّ المناهج كلّها مبنيّة على علّة أو هدف أو غاية ما مختلفةٍ من منهج إلى آخر، ولولا هذا التّنوّع في الأسباب التي من أجلها وُجِدَت المناهج، لكانت تلك المناهج كلّها منهجًا واحدًا، لا فرق ولا تباين بينها.

ينطبق حكم القصور والمحدوديّة في معالجة النّصّ الأدبيّ على المناهج كلّها دون استثناء؛ بما في ذلك الأسلوبيّة، فما من منهج إلّا وأصابته سهام النقّاد الموجّهة إلى المآخذ، باختلاف الزّوايا والعيوب، والحقّ أنّ من طبيعة العلوم الإنسانيّة العجز عن الكمال وعدم الاكتمال والتّمام، لذا فلا حرج في قصور المناهج ما دام قَدَرُها كذلك، وهذا لا يمنع - بطبيعة الحال- من السّعي إلى تطوير المناهج لتكون أكثر اقتدارًا على الإحاطة بزوايا النّصّ، فما لا يُدْرَكُ كلُّه لا يُتْرَكُ جلُّه، وتلك هي دراما النّصّ والمنهج؛ فالأوّل يستعصي على التّحليل ولا يُبِين إلّا عن بعض جوانبه، والثّاني يرفع التّحدّي ويطوّر إجراءاته ليَقْتَلِعَ ويَسْتَلِبَ شيئا ممّا يُخفيه النّصّ.

9- خاتمة:

نخلص في نهاية هذه الورقة البحثيّة إلى مجموعة من النّتائج نلخّصها فيما يلي:

- ربّما لم يُفلِح عبد الملك مرتاض في إيجاد مفهوم واضح بيّن للأسلوب كغيره من النقّاد ولكنّه قدّم عدّة تفسيرات له تجعلك تفهم الأسلوب وإن لم يكن بين يديك مفهوم له في تركيب لغويّ محدود الطّول وكامل المعنى.

- الأسلوب يكون للكتابة التي تتوفّر على الأقل على الحدّ الأدنى من الفنّيّة، ولا يكون للكتابة ككلّ، فَلِيَكُونَ هناك أسلوب ينبغي توفّر شرطين، أوّلهما الابتعاد عن الكتابة السّاذجة الرديئة، وثانيهما التميّز أو التّفرّد في طريقة الكتابة.

- الأسلوب ليس صفةً تُولَد مع صاحبه، ولا يمكن ابتكاره من عدم، بل هو مَزِيَّةٌ مُكتَسَبة كغيره من المهارات أو الصّناعات التي توجد لدى الإنسان قابليّة اكتسابها، وهو وليد الموهبة والتّمثّل والمحاكاة، مع شرط التّفرّد لاحقًا.

- المنهج الأسلوبيّ كغيره من المناهج غير مقتدر على مُكَاشَفَة كلّ الخصائص الجماليّة للنّصوص الأدبيّة بمفرده.

10- الهوامش والإحالات:

(1) عبد الملك مرتاض، (2003م)، الكتابة من موقع العدم، دار الغرب، د ط، وهران، ص 100.

(2) صلاح فضل، (1998م)، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشّروق، ط 1، القاهرة، ص 93.

(3) جورج مولينيه، (2006م)، الأسلوبيّة، تر: بسّام بركة، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات، ط 2، ص 85.

(4) عبد الملك مرتاض، (2010م)، في نظريّة النقد، دار هومة، د ط، الجزائر، ص 76.

(5) رولان بارت، (2002م)، الكتابة في درجة الصّفر، تر: محمّد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاريّ، ط 1، ص 17.

(6) صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ص 95.

(7) عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، ص 99.

(8) المصدر نفسه، ص 92.

ويسوق الفكرة نفسها في موضع آخر من كتابه في نظريّة النقد، ص 168، فيقول: "الأسلوب ينتمي إلى عالم الجمال، فهو من قبيل الفن".

(9) رولان بارت، الكتابة في درجة الصفر، ص 17.

(10) عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، ص 89.

(11) قدامة بن جعفر، (د ت)، نقد الشّعر، تح: محمّد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلميّة، د ط، بيروت، ص 65.

(12) عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، ص 88-89.

(13) عبد الملك مرتاض، في نظريّة النقد، ص 161.

(14) Michael Riffaterre, 1971, essais de stylistique structurale, presentation et traduction de daniel delas flammarion, paris France, p31.

ترجمة هذا القول: (اللّغة تعبّر والأسلوب يُبرز القيمة).

(15) ابن جنّي، (د ت)، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ج 1، المكتبة العلمية، د ط، مصر، ص 33.

(16) عبد القاهر الجرجاني، (2004م)، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، ط 5، القاهرة، ص 49-55.

(17) ابن المعتز، (د ت)، ديوان ابن المعتز، دار صادر، دط، بيروت، ص 216.

(18) ابن العبّاس أحمد القلقشندي، (1922م)، صبح الأعشى، ج 1، دار الكتب المصريّة، د ط، القاهرة، ص46.

(19) عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، ص90.

(20) طاطة بن قرماز، أثر التّرجمة المتخصّصة في ترسيخ جوهر الأسلوبيّة تنظيرا وتطبيقا، مجلّة اللّغة الوظيفيّة، الجزائر، العدد التاسع، ديسمبر 2018م، ص 22.

(21) ابن العبّاس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، ج 1، ص47.

(22) عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، ص 95.

(23) عبد الملك مرتاض، في نظريّة النقد، ص 167.

(24) عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، ص 108.

(25) Buffon, 1872, discours sur le style, examen critique: AD. Hatzfeld, librairie jacques lecoffre, Paris, p24.

(26) يُنظَر: صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ص96.

كذا يُنظر: فيلي ساندرس، (2003م)، نحو نظريّة أسلوبيّة لسانيّة، تر: خالد محمود جمعة، دار الفكر، ط 1، دمشق، ص29.

كذا يُنظَر: عبد السلام المسدي، (د ت)، الأسلوبيّة والأسلوب، الدار العربيّة للكتاب، ط 3، ص 67.

(27) يُنظر: سورة الرّوم، الآية 21.

(28) ابن العبّاس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، ج 1، ص55.

(29) عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، ص 88.

(30) المصدر نفسه، ص 104.

(31) عمرو بن بحر الجاحظ، (1998م)، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون ، ج1، مكتبة الخانجي، ط7، القاهرة، ص 89-90.

(32) Michael Riffaterre, essais de stylistique structurale, p 57.

(33) ميكائيل ريفاتير، (1993م)، معايير تحليل الأسلوب، تر: حميد لحمداني، دار النّجاح الجديدة، ط 1، البيضاء، ص 56.

(34) بيير جيرو، (1994م)، الأسلوبيّة، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط 2، ص 52-53.

(35) عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، ص 92.

(36) المصدر نفسه، ص 90.

(37) فتح الله أحمد سليمان، (2004م)، الأسلوبيّة مدخل نظريّ ودراسة تطبيقيّة، مكتبة الآداب، د ط، القاهرة، ص 32.

(38) أبو بكر محمّد بن يحيى الصّولي، (1341ه)، أدب الكتّاب، تح: محمّد بهجة الأثري، ج1، المكتبة العربيّة، د ط، بغداد، ص22.

(39) عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، ص 96.

(40) المصدر نفسه، ص 92.

(41) المصدر نفسه، ص 103.

10- قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم، رواية ورش.

2- أبو بكر محمّد بن يحيى الصّولي، (1341ه)، أدب الكتّاب، تح: محمّد بهجة الأثري، ج1، المكتبة العربيّة، د ط، بغداد.

3- بيير جيرو، (1994م)، الأسلوبيّة، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط 2.

4- ابن جنّي، (د ت)، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ج 1، المكتبة العلمية، د ط، مصر.
5- جورج مولينيه، (2006م)، الأسلوبيّة، تر: بسّام بركة، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات، ط 2.
6- رولان بارت، (2002م)، الكتابة في درجة الصّفر، تر: محمّد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاريّ، ط 1.
7- صلاح فضل، (1998م)، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشّروق، ط 1، القاهرة.
8- طاطة بن قرماز، أثر التّرجمة المتخصّصة في ترسيخ جوهر الأسلوبيّة تنظيرا وتطبيقا، مجلّة اللّغة الوظيفيّة، الجزائر، العدد التاسع، ديسمبر 2018م.
9- ابن العبّاس أحمد القلقشندي، (1922م)، صبح الأعشى، ج 1، دار الكتب المصريّة، د ط، القاهرة.
10- عبد السلام المسدي، (د ت)، الأسلوبيّة والأسلوب، الدار العربيّة للكتاب، ط 3.
11- عبد القاهر الجرجاني، (2004م)، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، ط 5، القاهرة.
12- عبد الملك مرتاض، (2003م)، الكتابة من موقع العدم، دار الغرب، د ط، وهران.
13- عبد الملك مرتاض، (2010م)، في نظريّة النقد، دار هومة، د ط، الجزائر.
14- عمرو بن بحر الجاحظ، (1998م)، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون ، ج1، مكتبة الخانجي، ط7، القاهرة.
15- فتح الله أحمد سليمان، (2004م)، الأسلوبيّة مدخل نظريّ ودراسة تطبيقيّة، مكتبة الآداب، د ط، القاهرة.
16- فيلي ساندرس، (2003م)، نحو نظريّة أسلوبيّة لسانيّة، تر: خالد محمود جمعة، دار الفكر، ط 1، دمشق.
17- قدامة بن جعفر، (د ت)، نقد الشّعر، تح: محمّد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلميّة، د ط، بيروت.
18- ابن المعتز، (د ت)، ديوان ابن المعتز، دار صادر، دط، بيروت.
19- ميكائيل ريفاتير، (1993م)، معايير تحليل الأسلوب، تر: حميد لحمداني، دار النّجاح الجديدة، ط 1، البيضاء.
20- Buffon, (1872), discours sur le style, examen critique: AD. Hatzfeld, librairie jacques lecoffre, Paris, p24.
21- Michael Riffaterre, (1971), essais de stylistique structurale, presentation et traduction de daniel delas flammarion, paris France.